القمة بعد صور البطولة الفلسطينية والوحشية الإسرائيلية في انتفاضة الأقصى

يمكن للشعب كما يمكن للفرد أن يزداد معرفة بنفسه في الأحداث الصعبة. وإذا كان صحيحا أن إلقاء حجر على حصن ودبابة وجندي مسربل بالسترة الواقية من الرصاص، وأن إنزال علم من فوق سارية محمية بنيران الرشاشات الآلية، قد لا يؤدي إلى كسب يتناسب مع الخسارة التي يكابدها الفلسطينيون، فإن صعود شاب يافع فوق حصن الجنود المدججين بالسلاح عند مفرق الشهداء جنوبي غزة، وإقدامه على إنزال العلم الإسرائيلي من فوق رأس الحامية التي نصبت رشاشاتها وقاذفاتها في فتحات الحصن، قد زاد الفلسطينيين، لاسيما الشبان من جيل البطل، معرفة بأنفسهم وبما ينطوون عليه من قدرات.وقد رد سائر الأجيال الفلسطينية رجالا ونساء إلى أنفسهم التي اغتربوا عنها قليلا.

فما زال النبع الذي يغترف منه الفلسطينيون مآثرهم وصبرهم وعنادهم وتجددهم نبعا دفاقا، ولو طمرته مصاعب الحياة اليومية حينا وظلم ذوي القربى حينا. وما زال عشق الشهادة روحا تعمر قلوب آلاف الشبان الفلسطينيين، وردا معهودا على ظلم الظالمين.

مواجهة مدهشة

وفي المقابل ما زال الإسرائيليون يتصفون بالمكابرة العمياء وهم يشهدون الحق بأعينهم، فلا يثوبون إلى شيء منه، ولكنهم - هم المغرمين بكل ما هو مادي ملموس - يهرعون إلى الاستزادة من ماكينات الحرب : الدبابات الأثقل، والمدافع الأبعد مدى، والحوامات الأفضل تسليحا، الخ.. الخ.. مع حرص على الحياة، وفقدان للرسالة، وغرور سقيم. إنها مواجهة مدهشة في مطلع القرن الحادي والعشرين بين الحق العاري وفضائله البسيطة المؤثرة، وبين الباطل المدجج بالنيران، المتربص وراء الجدر المحصنة. لقد بالغ الإسرائيليون في استخدام التجهيزات والأسلحة التي تقتنى من أجل معارك ميدانية طاحنة بين جيوش جرارة. واستخدموها استخداما عصبيا يشي بالذعر والارتباك، ضد جمهور معظمه من الأطفال.

أما ما أعادهم إلى حالة الذعر والارتباك التي خبروا صنفها في الانتفاضة الأولى فهو البوادر العديدة التي عاينوا فيها أطفالا فلسطينيين يجترئون على أفعال من قبيل ما قام به أحدهم، وسجلته عدسات المصورين، حين تسلق الحصن وأنزل العلم. فهنا يتذكر المرء ما قاله يتسحاك رابين قديما : لا شيء يمكن عمله لوقف إنسان ذاهب لكي يموت.. وهو بالضبط ما قاله الطفل الآخر لأمه صبيحة استشهاده : أنا خارج، وسأرجع إليك شهيدا!

لقد علق الإسرائيليون آمالهم، وفحواها السيطرة والنهب، على التكنولوجيا والتنظيم وإتقان علوم الحرب، وتجاهلوا من جديد أن مشكلتهم الحقيقية هي - حصرا - كون النهب والقمع والسيطرة هدفهم وغايتهم، وأن من شأن ذلك أن يولد لدى الآخرين تصميما عنيدا على فعل شيء - ولو كان باهظ التكلفة - يتغلب على سلاح الظالم ويثبت له أنه لن يفلت بجنايته.

فطرة الحق والعدل

نحن نعتقد أن هذا العناد خاصية فطرية أودعها الخالق في جميع الشعوب دون استثناء. وأن الثورات التي حررت الناس من عبودية المستعمرين عبر التاريخ ترجع إلى هذا الذي نقول. وقد ظهرت محاولات فكرية عديدة لوضع نظريات بشأنها، فلم تزد على أن فسرت أو

بررت بعض مظاهرها. ونضيف أن الشعب العربي الفلسطيني خير برهان على استحالة قهر الروح الإنسانية المفطورة على الحق والعدل والمتمثلة بقول الشاعر العربي :

ومراد النفوس أصغر من أن نتعادى فيه وأن نتفانى

غير أن الفتى يلاقي المنايا كالحات ولا يلاقي الهوانا

سنضيف ملاحظة أخرى نعتقد أن لنا الحق كل الحق فيها، وهي أن الفلسطينيين في القرن العشرين سجلوا رقما قياسيا في الثورات والانتفاضات والتضحيات، وأبدعوا في التصدي لخصم يفوق في قوته وتحالفاته خصم أية ثورة في العصر الحديث.

وعلى الجانب الآخر سجل الإسرائيليون رقما قياسيا في قمع الآخرين وتجاهل الدروس الجوهرية المستفادة من الصراع، موجهين انتباههم المضاعف نحو استنتاج العبر والدروس التكنيكية والتكتيكية، التي تتلخص في اقتناء مزيد من الوسائل الحربية واتخاذ مزيد من التدابير واكتساب مزيد من المهارات القتالية. لقد صاروا مسلحين حتى الأسنان. ولكنهم يتعجبون من ناحية لأن ذلك لا يضمن لهم تفوقا دائما، ويتعجبون من ناحية أخرى لأن أمراض الرفاهية والاسترخاء أصابت شبابهم الذين أدمنوا تعاطي المخدرات والانخراط في عصابات المافيا. لقد تخيلت الجمهرات الإسرائيلية أن العسكريين أمثال باراك وشارون والمتشددين أمثال نتنياهو هم بمثابة ألواح ثابتة فوق سفينة توشك على الغرق. تماما مثلما يتوهم الجندي الإسرائيلي القابع في دشمة حصينة محاطا بعناصر فلسطينية ثائرة أن المبالغة في إطلاق النار واستدعاء الحوامات قاذفة الصواريخ سوف يحقق له الأمان والتفوق المطلق بحيث لا يفكر أحد بعدها في الوقوف أمامه.

عقدة الإسرائيليين

و العقدة التي تزداد على مر الأيام تعقيدا تتمثل في ازدياد الميل إلى إنكار وجود الحقوق الفلسطينية، والاستهانة بقدر البشر الفلسطينيين. فالقاعدة الشعبية التي انتخبت نتنياهو في الانتخابات قبل الماضية، والتي بلغت آنذاك ما يزيد على نصف سكان إسرائيل، مازالت موجودة. والقاعدة الشعبية الأخرى التي تمثل النصف الآخر انتخبت رجل حرب واغتيالات ولم تنتخب رجل سلام. غير أن ما هو أسوأ أيضا كون الاحتمال بأن يصطف من يطلق عليهم المعتدلين خلف من يطلق عليهم المتشددين أقرب كثيرا من احتمال أن يصطف المتشددون خلف المعتدلين. ولعل من أبسط الأمثلة على ذلك ما جرى على لسان لبنة رابين أرملة رئيس وزراء إسرائيل الذي قتله اليمينيون، حين قالت في حديث صحفي لها في الأسبوع الماضي : "إن القدس أكثر أهمية لليهود مما هي للفلسطينيين " (!). فهذه السيدة من نخبة (العمل) تتكلم كلاما لا يختلف في النتيجة العملية عما يتكلمه عتاة (الأصوليين) اليهود. فالفرق في اللهجة بينها وبين القائلين بأن الفلسطينيين ليس لهم أي حق في المكان لا ينفي بأن الحل في نظرها هو تهويد القدس.

لكن أسوأ الأشياء إطلاقا هو ما سبق أن بيناه في مقالات قديمة أوضحنا فيها أن رجال السياسة في الولايات المتحدة يتبنون في مواقفهم أفكار ومشروعات أشد الأحزاب والجماعات اليهودية تطرفا. وكنا نحسب أن هذه الملاحظة الاستقرائية بحاجة إلى تأكيد من خبراء في الموضوع، فإذا بمقالة د. ادوار سعيد في القدس يوم تبل غليلنا وتضرب الأمثال العملية على ذلك.

إصابات العيون

هذه الفئة من الإسرائيليين تمارس العنف والقسوة والقهر والاحتقار، والقتل حين تحين الفرصة، ضد الفلسطينيين والعرب بنوع من اللذة والتشفي. وسواء أكان العمل عمل القناصة المستحكمين في الحصون الذين يفرغون حقدهم بواسطة توجيه الرصاص عمدا إلى الرؤوس والصدور عامة وإلى العيون خاصة، متباهين فيما بينهم بهذه اللعبة، أو كان عمل مذبحة على غرار مذبحة المسجد الإبراهيمي بالخليل ومذابح المسجد الأقصى المتلاحقة، أو تجسد العمل بأشكال أبسط مثل فرض رسوم جمركية فاحشة على هدية يحملها فلسطيني مغترب قادم من الخارج لزيارة أهله، أو مثل احتجاز سيارة بسائقها وركابها على الطريق دون داع إلا تشفي الجندي الفاعل.. وذلك كله عدا الأفعال المنهجية الدائمة مثل مراودة العمال الذين يراجعون مكاتب المخابرات الإسرائيلية للحصول على تصاريح العمل أو لتجديد (الكارت الممغنط) فتجري مساومتهم على ضميرهم وانتمائهم مقابل فرصة لكسب رغيف الخبز. فرغيف الخبز هنا ليس مغمسا بالدم وحسب، ولكن يراد أن يكون ملوثا بشرف الإنسان.

عموما إن هذه الفئة من الإسرائيليين وأمثالها هي الفئة التي اختارت الحكومات الإسرائيلية المتعاقبة أن تقحمها في قلب مناطق الضفة والقطاع وفي المستوطنات المزروعة بين الكتل السكانية الفلسطينية. ومنذ بدأت حكومات العمل حملات الاستيطان الكثيف في الضفة الغربية بعد حرب ١٩٦٧، جرى ترتيب أمور المستوطنين بحيث يتلقون من الحكومة الرواتب والمساكن والامتيازات المختلفة، مع تسليحهم وتدريبهم والإشراف على إدارة غرف عملياتهم في الأحوال العادية وأحوال الطوارىء. وأتمنى لو يكون لدينا إحصاءات عن جرائم القتل التي قاموا بها في المناطق المختلفة وعن أشجار الزيتون التي اقتلعوها أو أحرقوها.

فنون باراك

ويعلم المسؤولون الإسرائيليون كبارا وصغارا، أن سبعة وعشرين عاما من الاحتلال المباشر، ومن بعدها ستة أعوام من ممارسة سياسات الاحتلال ضد الكيان الفلسطيني الوليد في الضفة والقطاع، لم تفلح في القضاء على روح المقاومة ومبادرات المقاومة. ويكره المسؤولون الإسرائيليون أن يذكرهم أحد بأن اثنين وخمسين عاما على احتلال فلسطين لم تفلح في القضاء على الانتماء الفلسطيني والشخصية الفلسطينية ووحدة الحال الفلسطينية بين عرب الثمانية وأربعين وإخوانهم في الضفة والقطاع. وهي حقيقة ظن المحتلون قديما أن بالوسع إضعافها بواسطة مشروع تهويد الجليل، وعاد نتنياهو في كتابه المعروف الصادر بعد أكثر من ثلاثين سنة على تنفيذ المشروع يقول إنه ما زال يراها هي الخطر الديمغرافي الأول الذي يهدد النقاء العنصري اليهودي.

لا يستطيع أحد إحصاء الأساليب التي استخدمها الاحتلال الإسرائيلي ضد العرب أهل فلسطين، والتي تولتها الأجهزة السرية الإسرائيلية منذ عام ١٩٤٨ حتى اليوم بصورة رئيسية، وشاركت فيها القوات المسلحة والشرطة، مثلما شارك فيها الباحثون المستعربون وعلماء النفس والمسؤولون عن الاقتصاد وعن التعليم وعن البلديات.. كل في مجاله. ولم يبق أحد من رؤساء الوزارات في إسرائيل بدءا ببن غوريون حتى باراك إلا اجتهد وتفنن في سبيل كسر العنفوان الفلسطيني والإرادة الفلسطينية بأسلوب في القمع لم يسبقه إليه أحد. ويتميز عهد باراك بفكرة قيام القناصة بإطلاق النار على عيون الأطفال الفلسطينيين، مثلما تميز عهد رابين (وكلاهما من حزب العمل ويعد نسبيا من المعتدلين) بكسر أذرع فتيان الانتفاضة الأولى.

هل عرفات المحرض

الفلسطينيون بدورهم لم ينسوا بطش جلاديهم. وما زال فتيان الأمس الذين خرجوا من الانتفاضة الأولى بإعاقة بدنية شاهدا ماثلا أمام فتيان اليوم على الأذى الذي يمكن أن يصيب الإنسان في المواجهات مع جنود الاحتلال. فهل وقف ذلك حائلا دون الغضبة للأقصى والاندفاع نحو ميادين المواجهة؟

يقيس الإسرائيليون الأمور بمقاييسهم. يقولون : عرفات هو المحرض. والسلطة الفلسطينية هي المسؤولة.

لماذا لا يريد الإسرائيليون أن يقروا بالحقيقة التي يعرفونها جيدا؟ هل كان عرفات والسلطة الفلسطينية موجودين لدى نشوب الانتفاضة الأولى التي استمرت سبع سنوات؟ ألا يعرف الإسرائيليون يقينا أن استمرارهم في النهب الاستيطاني، ومصادرتهم حريات شعب كامل، وتجاهلهم حقوقه تماما، واحتقارهم إنسانيته، واعتداءهم على مقدساته، هي الأسباب المختزنة التي فجرت انتفاضة الأقصى اليوم، مثلما فجرت انتفاضة عام ١٩٨٧، وأن إقدام شارون على تدنيس المسجد الأقصى كان الشرارة الكهربائية القوية الكافية في حد ذاتها لإشعال أكبر حريق، حتى لو لم يكن هناك وضع متفجر ملتهب أصلا؟!

سمعنا شلومو بن عامي يقول في اليوم التالي لفعلة شارون والحكومة الإسرائيلية : "يستطيع الرئيس عرفات أن يوقف الشغب، فلا يشك أحد في سلطته المطلقة". أفلم يكن بن عامي في عام ١٩٨٧ مسؤولا إسرائيليا رفيعا، وكان بيد الإسرائيليين المحتلين السلطة المطلقة على الضفة والقطاع؟ لماذا لم تستطع سلطة الاحتلال أن تضغط على أزرارها وتوقف الانتفاضة؟ ومن الذي قال لبن عامي أن الرئيس عرفات يريد ـ حتى لو كان يستطيع ـ أن يكبت صوت شعبه الصارخ من أجل الأقصى؟

رسالة لمصر والعرب

تقول الأخبار أيضا إن الإسرائيليين ينحون باللائمة على الرئيس الفرنسي شيراك الذي شجع عرفات على عدم التوقيع في باريس على الورقة التي أعدتها مادلين أولبرايت. وهذا أيضا نوع من المكابرة والوقاحة وتعليق الحمل على شماعة الآخرين، مع محاباة الذات دائما، ورفع الأنف عاليا، بصورة غبية يمثلها باراك عن جدارة، لامتناعه خاصة عن تلبية دعوة الرئيس مبارك إلى شرم الشيخ. فمن هو باراك ليرفض دعوة مصر ورئيس مصر!؟ وهل اكتظاظ مخازن أي كائن بالأسلحة أو خزائنه بالمال كاف لأن يجعل منه إنسانا في مصاف المحترمين أو يخوله استصغار دعوة من يفوقونه حضارة وتراثا وتاريخا؟ على أن هذا الموقف من قبل باراك هو الموقف الذي لقنته إياه مادلين أولبرايت قبل أن تذهب لتنوب عنه في شرم الشيخ، فتسخر هيبة أمريكا بكل تواضع حبا وكرامة، من أجل أن يوصل الاثنان إلى مصر والعرب، من خلال توزع الأدوار هذا، رسالة تقول لمصر والعرب :"إن باراك سيد المنطقة رغم أنوفكم. وهو غير مستعد للاستماع إليكم. ولكن هاتوا رسالتكم أوصلها له.فأنا من أجله فقط أقبل أن أكون حاجبة عند بابه ". لقد كان في هذه الواقعة من السخرية ما يفوق الممكن في أغرب وأعجب الأزمنة!

إذا كان ذلك مقبولا لدى الملوك والحكام العرب فإن الهبة المشهودة من الشعوب العربية والإسلامية أعلنت بوضوح أنها لا تقبله. وإذا كانت الأجيال الكبيرة من العرب مستعدة للصمت والإغراق في إجراء الحسابات إلى ما لانهاية، فإن الأجيال اليافعة معبأة بما فيه الكفاية، لا لتصرخ وتهتف وتشجب وتدين وحسب، ولكن لتجتاح القصور أو ـ على أقل تقدير ـ لتعمل تحت الأرض عملا مزودا بقدر غير مسبوق من العلم والتخطيط، لا تجدي معه الاحتياطات، لتقلب المعادلة كلها، مهما غلا الثمن.

فيتو جاهز كالعادة

ليس متوقعا أن ترى الولايات المتحدة ولا إسرائيل في الانتفاضة الفلسطينية الجديدة ولا في الغليان الشعبي والمظاهرات الصاخبة في بلدان العالم العربي والإسلامي مناسبة يصح التوقف عندها لمراجعة هذه السياسات الخرقاء . لقد أعلنت الولايات المتحدة أنها سوف تستخدم الفيتو ضد أي قرار يحمل إسرائيل مسؤولية ما حدث. وأمريكا ستظل مشغولة بانتخابات الرئاسة على كل حال فلن تغير ولن تبدل لهذا السبب على الأقل. وهي مطمئنة في جميع الأحوال إلى أن مصالحها غير مهددة، لأنها تعتمد على عملاء جهزتهم طويلا وزرعتهم في المفاصل الحساسة في العديد من أنظمة الحكم العربية. أما إسرائيل فيحكمها في الوقت الحاضر رجل ذو رأس صغيرة وضمير مهتريء، وقد ينجح في تشكيل وزارة (وحدة وطنية) كما دعاها وهدد بها. والخلاصة أن تفكيره مركز على كيفية القضاء على الانتفاضة الجديدة بواسطة ابتكار لم يسبقه إليه أحد.

وفي اعتقادي أن أولبرايت ستحاول جهدها أن تبث الألغام في مؤتمر القمة العربي الذي لم تتمكن من منع الدعوة إليه بعد هذا الطوفان الشعبي الكبير. وسيكون هدفها أن يؤول الى الفشل عمليا.

الأغلبية الصامتة

وفي اعتقادي أيضا أن المؤتمر فرصة أخيرة أمام الحكام العرب كي يظهروا للأجيال الشابة في بلادهم تجاوبا مقنعا مع ما تستشعره هذه الأجيال من غضب وعصبية ونفاذ صبر، بعد أن صمم شارون ومن ورائه باراك على إلقاء القفاز في وجوههم بصدد القبلة الأولى والمسجد الثالث الذي تشد إليه الرحال. ونحن لا نقول هذا الكلام للتعبير عن أمنية عصبية بأن يجرف الطوفان كل شيء وأن تصبح الأوضاع الداخلية هي مدار المعارك. فذلك تفكير فج يراود المأزومين ويتمنى أعداء الأمة انزلاق الأوضاع نحوه لكي تكمل الأمة استنزاف نفسها بنفسها في هذا الوقت الذي تكمل فيه إسرائيل نهبها للأراضي وتهويدها للقدس. ولكن اجتناب الطوفان لا يتحقق بمجرد الارتماء في أحضان الأجنبي أو تزويق البيانات الصحفية لاستهلاك الأغلبية الصامتة. فلن تقبل الأغلبية الصامتة في البلاد العربية بمجرد قرارات أو توصيات خطابية للضحك على الذقون، ريثما يسدل النسيان ستاره على كل شيء ويعود الأمريكيون يشغلون المسرح بذهابهم وإيابهم على غير طائل. إن هذه الأغلبية لن تقبل إلا بما يرضى عنه الفلسطينيون. ولكن لما كان الزمن غير موات لفرض الإرادة أو لتغيير المعادلات وطبيعة العلاقات القائمة بين أمريكا والبلاد العربية فإن المطالب الفلسطينية متواضعة للغاية .

بين الكساح والقفز

وبصورة أوضح : لا يريد الرأي العام العربي من القمة أن تسترضيه بدفع تبرعات ومساعدات للشهداء والمصابين والمعاقين، ثم تدير ظهرها للقضية السياسية. لقد تكررت مثل هذه الأساليب في التخلص والتهرب من مواجهة الواجب حتى باتت محفوظة عن ظهر قلب. وفي أثناء ذلك تردت أحوال الأمة من حضيض إلى حضيض على جميع الأصعدة. وقد يكون من الصعب بعد أن بلغت الأمور هذا الحد أن يتمكن أي عطار من إصلاح ما أفسده الدهر إصلاحا كبيرا مفاجئا. ولكن الاستمرار في موقف العجز الكامل والتهرب من مواجهة ما يفرض نفسه على الأمة من تحديات يجيز لأي متسائل أن يتساءل لأي شيء أنتم موجودون إذن؟

هناك منطقة واسعة تقع بين كساح الإرادات وعجزها وبين القفز إلى مستوى الأحلام والآمال. هناك الكثير مما يستطيع المسؤولون الكبار أن يفعلوه دون أن يفقدوا مع ذلك كراسيهم. وأضعف الإيمان اليوم أن تثبت القمة العربية وجودها على نحو مقنع، فتضع برنامجا تتابع تنفيذه عبر سكرتاريا دائمة تظل في حالة انعقاد مستمر وتكون مؤلفة من الملوك والرؤساء الذين تتمتع أقطارهم بوزن مؤثر. ومثالا على ما يمكن للقمة أن تعمل لتحقيقه نورد المطالب المرحلية المتواضعة التالية (وتدور كلها حول جعل الحالة التي يعيش الفلسطينيون في ظلها صالحة لعيش البشر، وأن لا يوضعوا في الأحوال التي تحتم عليهم عمليا أن يقدموا كد أذرعهم وعرق جبينهم لبناء المستوطنات أو لخدمة المزارع أو لكنس الشوارع الإسرائيلية، وتحتم عليهم أيضا أن ينفقوا ما يتقاضونه لقاء عرق جبينهم على فضلات السوق الإسرائيلية التي هي البضاعة الوحيدة المسموح بوجودها في أسواقهم، وتحتم على ضعفاء النفوس فيهم أن يقصدوا العواصم العربية سماسرة ومرشدين لبيوتات التجارة الإسرائيلية.

الحد الأدنى

فلتقم القمة العربية بشيء في نطاق الحد الأدنى إلى أن يأذن الله بفرج من عنده، لأن السياسة الإسرائيلية الجارية والمستمرة منذ قيام السلطة الوطنية الفلسطينية سياسة تضع الفلسطينيين في أحوال سياسية واجتماعية واقتصادية وأمنية تؤدي إما إلى ما أوضحناه سابقا أو إلى ترحيلهم أو ترحيل معظمهم من البلاد. بينما تتمثل المصلحة العربية والإسلامية العليا في تمكينهم من الاستمرار في الرباط بهذا الثغر الذي أرادتهم الأقدار أمناء عليه)

أولا ـ تشكيل قوة دولية إسلامية في إطار الأمم المتحدة يوكل لها مجلس الأمن مهمة حراسة وحماية المسجد الأقصى والحرم القدسي.

ثانيا ـ الضغط على الولايات المتحدة جديا، ومهما كلف الأمر، لتنفيذ البند المتفق عليه في أساس الاتفاق المرحلي، بفتح الطريق الآمن بين الضفة والقطاع وضمان وحدتهما الإقليمية.

ثالثا ـ منع المستوطنات الإسرائيلية من الاستمرار في نهب المخزون الجوفي من المياه المستهدفة في الضفة والقطاع.

رابعا ـ المطالبة بقوات طوارىء دولية تتمركز بين مناطق السلطة الفلسطينية وأراضي ٤٨ لتكون قوات فصل بين الجانبين.

خامسا ـ إقامة علاقات اقتصادية عضوية وحرة بين دول الجوار العربية ومناطق السلطة الفلسطينية، وإنهاء حالة احتكار السوق الفلسطينية للبضائع الإسرائيلية.

سادسا ـ تدبير فرص عمل لآلاف العمال الفلسطينيين في مناطق صناعية تقام في الأراضي الفلسطينية لصالح دول الجوار العربية.

سابعا- تأمين نوع من الرقابة الدولية لمنع إسرائيل من دفن مخلفات صناعاتها السامة في أراضي السلطة الفلسطينية وفي المستوطنات المقامة فيها.

وفي الختام

هذه المطالب المتواضعة لا تتحدث عن حلول نهائية ولا عن نجدة المعتصم ولا عن التحرير ولا عن الحرب في توقيت غير مناسب. فهي مطالب مؤقتة في مرحلة رديئة وضمن حدود الممكن فيها. ولكنها قد توفر للفلسطينيين الحد الأولي الأدنى من شروط الحياة المتحررة من الحصار ومن الخضوع للاحتكار ومن معاناة الشظف والإفقار ومن التسلط على الحرم والمسجد ومن تسميم الأرض ومن نهب ما تبقى من المياه التي هي أصل كل شيء حي.

وإذا كان في جعبة ملوكنا ورؤسائنا ما هو أفضل من هذا فلن نرفضه. ولكننا نرى أن ما هو أقل من ذلك يضعنا في موقف جربناه فوجدناه أصعب وأمر من أن يتحمله الإنسان.

في مجال السياسة العربية

خرجت البلاد العربية من حكم الأتراك في الربع الأول من القرن العشرين، لتدخل راغمة في عهدة الحلفاء المنتصرين، تحت مسميات الوصاية والحماية والانتداب. وكلها تعني أن هذه البلاد المفتوحة غير مؤهلة لحكم نفسها بنفسها. وهكذا حظيت الدول الاستعمارية الحاكمة بغطاء من شرعية عصبة الأمم على أساس تقسيم بلاد العرب، خلافا لارادة أهلها الذين تطلع روادهم القوميون إلى دولة عربية واحدة.

حصلت البلاد على استقلالها في أوقات متفاوتة في الربع الثاني من القرن دون أن يتوقف التدخل الأجنبي في شؤون الحكم فيها، لاسيما بعد ما اكتشف وجود النفط. ونجحت القوى الاستعمارية في زرع جسم غريب وسط المنطقة، يكون خفيرا ميدانيا دائما لحراسة حالة الضعف والتفكك والجمود. فإجهاض التقدم السياسي والتطور الديمقراطي هو واحد من تدابير منظومة السياسات الغربية الهادفة إلى مصادرة تشكيل قوة عربية مستقلة ذات إرادة. وهناك مفاصل معينة كشف النقاب عن بعض أسرارها وعن علاقة الغرب بها، مثل سلسلة الانقلابات . بدءا بانقلاب حسني الزعيم الذي أطاح بالحكم الديمقراطي في سوريا عام ١٩٤٩ ـ بغرض تسهيل عقد اتفاق

الهدنة مع الكيان الإسرائيلي الوليد، ومثل الانقلاب الانفصالي الذي أطاح بوحدة مصر وسوريا عام ١٩٦٢، ومثل سلسلة الانقلابات في الخليج بغرض تسهيل المصالح النفطية للشركات الأجنبية.

ومع ذلك فليس الاستعمار وحده هو المسؤول عن استمرار الوضع الانقسامي وجمود التطور الديمقراطي، فالحقيقة أن في المنطقة العربية حالة مستوطنة من القصور الذاتي في الوعي وفي المبادرة وفي المثابرة. وهناك نماذج من المسلكية السياسية المنهجية تستعصي على الفهم المباشر وتحمل على التشاؤم. ولا يمكن فهمها إلا بالرجوع الى التجربة الجماعية في ماضي الأمة، فلا شك أولا أن هناك علة. ولا شك ثانيا أنها علة بعيدة الغور قد يحتاج التنقيب عنها للرجوع إلى زمن أبعد من عهد انحطاط الأتراك العثمانيين بل ومن عهد المماليك. فبعض المفاهيم السياسية الموروثة _ والأصح أن ندعوها العقد المتغلغلة في التربية _ ترجع إلى ما خلفته الدول الأموية والعباسية والفاطمية في الضمير الجماعي للأمة.

لقد أحجم فقهاء الأمة قديماً عن نقد هذه الدول في نشوئها و ممارساتها، و بشكل خاص نقد التجاوز الذي طرأ على تداول الخلافة وخرج على السابقة التي سجلتها خلافة الخلفاء الراشدين على الأقل. كذلك تجاهل المعنيون بالفكر السياسي في العصور الحديثة ما خلفته عصور المماليك وآخر أيام العثمانيين في التربية المتوارثة من شيوع الخوف، والاستكانة، والحذر من المبادرة، والتمحور حول الذات الفردية والبحث لها عن منجى مؤقت بعيدا عن التفكير طويل المدى وبعيدا عن الجماعة، وترك الشأن العام للقلة القوية التي تحتكر السلطان بحد السيف. غير أن الأسوأ في هذه الخلفية التاريخية هو حمل أصحاب المصلحة تجاوزاتهم على الشرع ليضمنوا سلطان حجتهم على العامة وليأمنوا نقضها من قبل المنافسين. وكان إسباغ القداسة على ما ليس مقدساً من الحيل التي استخدمتها أطراف الصراعات، وأدت إلى تكبيل الفكر السياسي بقيود دخيلة على العقيدة في بساطتها الأولى. ولم يقتصر الضرر على هذا، إذ رافق التجاوزات والمخالفات مسخ لعملية جوهرية مطلوبة لشرعية الخلافة، ونعني بها عملية البيعة التي تحولت إلى مسرحية شكلية مدبرة. وأدخل ذلك في صميم التقاليد الموروثة اعتبار الموالسة مع الشكليات ذات الشرعية الملفقة التي يرتبها الحاكم أمرا مقبولا، وتجارة يفيد منها المنافقون. وهكذا مسخوا العقيدة التي كانت رافعة للأمة، فجعلوها مطية للمصالح.

لقد تحالفت عوامل القصور الذاتي مع المخططات الاستعمارية ودوائرها التنفيذية، للحيلولة دون إنجاز مشروع دولة الوحدة الذي كان مطمح الثوار العرب والذي هو الأساس المحتم لولادة قوة عربية ذات وزن. ثم تقلصت مطامح الرأي العام وانحصرت في جامعة الدول العربية وتطوير حد أدنى من التنسيق والتضامن البديل عن الوحدة على غرار خطوات الدول الأوروبية، وذلك ما قنع به الليبراليون. وإذا كان للأجانب الدور الأكبر في اعتراض محاولات الوحدة الشاملة، فان أصحاب النصيب الأوفى في فشل الجامعة العربية والمشاريع المقرة في اطارها _ وبينها السوق العربية المشتركة _ هم صناع القرار العرب أنفسهم لتقاعسهم عن خوض أية تجربة تعاونية وتغليبهم المخاوف على الثقة المطلوبة. ثم اتخذت المخططات المعادية للوحدة شكلا وقائيا _ استنزافيا باثارة حروب الأشقاء في ربع القرن الأخير من أقصى المشرق العربي إلى أقصى المغرب. فلم يبق بلد عربي لم يشتبك حربيا أو سياسيا مع البلد العربي المجاور، ولم تبق طائفة في القطر الواحد لم تشتبك مع غيرها من الطوائف، وذلك كله دون اسباب مقنعة، ودون أن ينجم عنه فوز لأحد. وتزامن ذلك مع ازدياد تأثير اسرائيل والمراجع الصهيونية في رسم السياسات الشرق أوسطية الخاصة بالولايات المتحدة ومع انفراد السياسة الأمريكية بالهيمنة

العالمية.

ليس للدول العربية في ظل هذا الوضع وزن في النظام العالمي الجديد. واذا استمر الحال على هذا المنوال فان القياس على ما حدث في المنطقة مؤخرا يشير الى قسمة المزيد من الأعداد الصحيحة دولا وأنظمة وشعوبا وثروات، واستلام إسرائيل تسيير مقاليد الأمور مركزيا في المنطقة. أما الخروج من هذا الوضع فلا يحتاج إلى دراسات معمقة، وانما إلى فعل ما لم يفعله العرب حتى اليوم، وهو أن يفكروا في مستقبلهم قليلا، في اليقظة لا في المنام.